



قال لي صاحبي: أما ترانا كل يوم فقد عزيزا، ونخسر أرضا، ونسحب من موقع، ونفاجأ بكارثة؟
قلت: بلـ.

قال: ما الخطب؟ ولم؟ وإلى متى؟ وما المخرج؟ وأين المفر؟
قلت: لا مفر من الله إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا به.

قال: ها نحن ندعوه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً فلا يستجاب لنا!

قلت: إنه لا يخلف الميعاد، والدعاء أحد الأسباب الشرعية، ومعه أسباب شرعية أخرى؛ كالعدل، والإحسان، ورد المظلوم، وحسن التعبُّد، والتوكُل..

وَشَمَّ أَسْبَابٌ طَبِيعَةٌ كُونِيَّةٌ وَضَعَهَا اللَّهُ نَوَامِيسٌ تَجْرِي بِهَا الْعَادَةُ، وَهِيَ سُنْنٌ مُحَكَّمَةٌ لَا تَكَادُ تَخْلُفُ.

كما الشمس في مطلعها ومغيبها، والقمر، وقوانين الذرة، والمجرة، والفيزياء، والكيمياء، وما بث الله في الكون من أحياء ودواب تجري كلها وفق ناموس واضح محكم؛ في أكلها، وشربها، وتزاوجها، وصحتها، ومرضها، وكثرتها، ونفوقها، وتنوعها..

أفتري شيئاً من ذلك عبثاً لا نظام له؟

قال: لا؛ وربى!

قلت: وهل جعل الله هذا الناموس متفاوتاً بين عباده في الدار الدنيا، فهو يجري بطريقة ما على الكافر، ويجري بطريقة أخرى على المؤمن؟

قال: كلا؛ هو ناموس واحد مطّرد يجري على العباد كلهم، ورحمته وحكمته اقتضت أن يكونوا أمام قانون الدنيا والكون سهاسنة..

قلت: فلماذا نحن في كل مرة نواجه أزمة تدرج ضمن هذه النواميس، نستغيث بلهجة من يريد من ربه خرق الناموس، وإحداث المفاجأة، وإجراء النتيجة التي لا تنسجم مع المقدّمات والأسباب؟
كيف نتعلم إذا كان منا من يقول كما قالت بنو إسرائيل: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} (18:المائدة)؟
نعم؛ هو لا ينطقها بلسان المقال بل بلسان الحال.

ويعتبر نفسه كالابن المدلل؛ الذي يفعل ما يشاء، ولا يُؤاخذ، ولا يُعاقب، ولا تجري عليه القوانين؛ التي تجري على بقية الشعب!

أليس نقرأ في كتاب ربنا: {إِلَيْسَ بِأَمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} (النساء: 123، 124)؟

أليس قد قال الله لأهل الكتاب: {بَلْ أَنْتُ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقٍ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ} (المائدة: 18)؟

أليس يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (بَأَنَّ بَنِي كَعْبَ بْنَ لُوَيِّيَّ أَنْقَذُوا أَنْفُسَكُمْ مِّنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بْنَ كَعْبٍ أَنْقَذُوا أَنْفُسَكُمْ مِّنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقَذُوا أَنْفُسَكُمْ مِّنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقَذُوا أَنْفُسَكُمْ مِّنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقَذُوا أَنْفُسَكُمْ مِّنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقَذُوا أَنْفُسَكُمْ مِّنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةَ، أَنْقَذَنِي نَفْسِكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحْمًا سَابَلُهَا بِيَلَاهَا) (رواية مسلم).

أليس يقول حذيفة بن اليمان: (نعم الإخوة لكم بمن إسرائيل إن كانت لهم كل مُرّة ولهم كل حلوة، فلا والله لتسلكن طريقهم قِدَّ الشراك)؟ (رواية ابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححة).

كيف سنصحح تفكيرنا المعوج وطريقنا المائل إذا كانت الأمور تطاوينا وتجري لنا كما نشتهي، ونحن معنون في الخلط، غافلون عن التصويب والتسديد، غارقون في مألهفاتنا وما وجدنا عليه آباءنا؟

قال لي صاحبي: صدقت.. ولكن ما قيمة الدعاء إذن؟ ولماذا يحركنا الدعاة والوعاظ إليه ليل نهار كلما ألمت ملمة أو وقعت كارثة؟

قلت: الدعاء عبادة، وهو مناجاة وصلة وقرب من الله؛ يربّي على الصبر واحتساب الأجر، ويقوّي العزيمة على الطريق، ويرفع الهمة، ويعزّز المقاومة، ويصنّع التحفيز، ويفتح باب الأمل في حالات ومواقف شخصية، وأزمات نفسية وصحية وخاصة وعامة، ويهدي النفس، ويريح الخاطر..

ولو لم يكن من بركته إلا أنه يمنّ طاقة عظيمة على انتظار الفرج ولو بعد حين أو جيل أو جيل، ويحمي النفوس من سطوة الكآبة والحزن، والهمّ والغم، واليأس والقنوط والاستسلام.. لكان ذلك كافيا.

الدعاء يمنح اللطف في الأزمات، ولذا كان بعض الصالحين يقول: اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه!

ويا ليت أن صيغ الدعاء تكون ملهمة ومحفزة على التدارك والتصويب والبحث عن أسباب الهزيمة في داخلنا كما كان أحدهم يقول: اللهم بصرنا بمواطن الضعف في نفوسنا!

قال صاحبي: وهل ورد مثل هذا عن سيد المتعبددين؟

قلت: نعم. كان أول ما يقول في دعائه وخطابه: «وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا» (مسلم، وأحمد عن ابن عباس).

وكان يقول: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّكِ» (أحمد، وأبو داود، والترمذى، والحاكم عن أبي هريرة).

وكان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي وَمِنْ شَرِّ فَرْجِي» أو كما قال - صلى الله عليه وسلم - (رواية أبو داود، والترمذى، والنمسائى، والحاكم).

